

العادات والتقاليد بين سلطة الممارسة واعتباطية المعتقد

سحر التصفاح أو التصفيح نموذجاً

Customs and traditions between the authority of practice and arbitrary belief The magic of clapping or virginity witchcraft as a model

أ.عداد راضية¹،*، أ.د. لراوي العلمي²،

¹ جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1 (الجزائر)، addad.radia1979@gmail.com،

² جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، (الجزائر)، laalmi_laraoui@yahoo.fr،

تاريخ الاستلام : 2022/12/01 ؛ تاريخ القبول : 02/12/2023

ملخص :

يندرج هذا المقال في الدراسات الشعبية، وهو مجال معقد ابتدعت فيه العقلية الشعبية عالماً لا مرثياً، فرض فيه العادات والتقاليد سلطة يصعب على الفرد الهروب منها، خاصة السحر، فقد أخذ في المجتمع الجزائري بعداً أعمق مما يعرف عنه، حيث أصبحت العقلية الشعبية تبتدع طرائق للحفاظ على الشرف وعلى جسد المرأة، ولو كان السبيل إلى ذلك هو السحر، ومن أمثلة ذلك "سحر التصفيح"، فما هو؟ وما هي آلية عمله؟ وكيف ينظر كل من علم النفس، والطب، و الدين إلى هذه الظاهرة

الكلمات المفتاحية: العادات، التقاليد، سحر، التصفيح.

Abstract : The present article, which falls within the field of popular culture studies, attempts to uncover a given aspect of the Algerian popular mentality and to discuss the power of customs and traditions in shaping people's actions. Witchcraft, for instance, plays an interesting role in many aspects of the Algerian popular mentality. Subsequently, this article devotes special attention to the role of witchcraft in protecting the woman's honour and body by shedding light on the witchcraft of cabling "keeping a woman virgin until marriage"; how it works; and how it is viewed in psychology, medicine and religion.

Keywords: Customs and traditions, virginity witchcraft.

1- مقدمة

إنّ الطبيعة البشرية تفرض على الإنسان الانسجام مع الجماعة البشرية التي ينتمي إليها من منطلق أنه جزء من المجتمع، وكذا من مبدأ أن كل فرد في الجماعة يعد حلقة وصل وديمومة للبقاء والإبقاء على استمراريتها «المجتمع» غير أن هذا الانسجام وهذه الديمومة يفرض تضحيات كبيرة، كما يتطلب وسيلة إقناع منطقية لتبرير بعض الممارسات والعادات، وإلا كانت كل الممارسات التي ليس لها تبرير منطقي، إما اعتباطية الممارسة، أو تدخل في عالم الغيبيات أو اللأمفسر، ومن هذا المنطلق، ارتأيت -في هذه الصفحات العلمية- أن أتناول موضوعا حساسا تدرج تحته عدة مواضيع أكثر حساسية وتعقيدا.

إنّ موضوع بحثنا - في المقام الأول- هو العادات والتقاليد، إذ يُعد البحث فيه أصعب مما يُخيل للمتلقي، فمن ناحية نجد سهولة الإدراك والتطبيق ومن ناحية أخرى صعوبة تحديد المفاهيم واستيعاب المنطلقات الفكرية والمعرفية لها، فمعظم الباحثين في هذا المجال سواء أكانوا من الأنثروبولوجيين أو علماء الاجتماع أو المختصين في الفلكلور والدراسات الشعبية، قد وقفوا بطريقة أو بأخرى على المفاهيم والمصطلحات، على الرغم من وجود بعض الغموض أحيانا، إلا أنهم حاولوا - كل حسب طريقته ومرجعياته العلمية والمعرفية - تحديد مفاهيم العادات والتقاليد والإشارة إلى التداخلات في الاستعمال مع مصطلحات أخرى، وفي هذا السياق نعرض بعض المحاولات :

أولا : تعريف العادات والتقاليد:

تجدر الإشارة إلى أن هذا المصطلح المركب هو نتيجة للاستعمال والتداول، لكننا سننطلق من مصطلح العادات لأنها أنماط السلوك، لنصل إلى التقاليد التي لها دلالة التكرار والتوارث جيلا بعد جيل، فالعادة "ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية والإنسانية، وهي حقيقة أصلية من حقائق الوجود الاجتماعي، نصادفها في كل مجتمع، وهي تؤدي كثيرا من الوظائف الاجتماعية الهامة، عند الشعوب البدائية، كما عند الشعوب المتقدمة في حال الاستقرار، وفي حال الانتقال والاضطراب والتحول، وهي موجودة في المجتمعات التقليدية التي يتمتع فيها التراث بقوة قاهرة وإرادة مطلقة، كما أنها استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها في ظل مجتمعاتنا العلمانية و المتطورة" (محمد الجوهري وآخرون، 1993).

تعدّ العادة من هذا المنطلق هي ظاهرة راسخة في القدم و متجذرة في المجتمعات، بغض النظر عن طبيعتها وعن الانتماءات الجغرافية والعرقية والتكنولوجية لممارستها، على اعتبار أن العادات - بالأخص- هي ظواهر اجتماعية تعودت المجتمعات على ممارستها في ظل ظروف معينة وفي مناسبات مختلفة، وبناء على ذلك فإن العادات الشعبية تعرف -عموما- بمصطلح العادات الاجتماعية، لأننا نقع في لبس معرفي كبير في تحديد المفهوم، لكن مصطلح العادات الاجتماعية هو الأشمل في هذه الحالة لأنه يحيلنا إلى الطابع الشعبي لبعض الممارسات، ونلتزم ذلك من خلال قول "دوارد سابير" : « العادة الاجتماعية مصطلح يستعمل للدلالة على مجموع الأنماط السلوكية التي تحتفظ بها الجماعة وتترسما تقليديا وهذا ما يميزها عن النشاطات الشخصية التي يقوم بها الفرد » (فوزية دياب، 2004، ص108).

وهذا للفصل بين العادة الاجتماعية كأسلوب اجتماعي، أي إنها لا يمكن أن تكون إلا بالحياة في المجتمع والتفاعل مع أفرادها وجماعته، كالخطبة والزواج وتشجيع الموتى وحفلات المناسبات... الخ، والعادة الفردية التي تميز الفرد الواحد عن الآخر: كعادات النوم والمشي واللعب وغيرها، وتعرف العادات الاجتماعية أيضا على أنها « كل سلوك متكرر يكتسب اجتماعيا، ويتعلم اجتماعيا، ويمارس اجتماعيا، ويتوارث اجتماعيا » (محمد الجواهري وآخرون، 1993، ص 38) وعليه فإن العادات الاجتماعية تتطلب جماعة بشرية في رقعة جغرافية، تسمح للمنتمين إليها من اكتساب ممارسات معينة، تُمارس، تُعلم، وتُتوارث لتصبح تقليدا جيلا بعد جيل.

ومما سبق نفهم معنى العادات الاجتماعية الشعبية على أنها سلوك متكرر مكتسب اجتماعيا، ويتم تعليمه وممارسته اجتماعيا حيث ترتضيه الجماعة وتفرضه على أعضائها وعندما يستمر استعمال العادات لفترات طويلة تصبح تقليدا TRADITIONS ، فالتقاليد على هذا « هي كالمحاكاة لسلوك القدامى المتوارث عنهم، والتقاليد أيضا تنتقل وتورث من جيل إلى جيل، كما يمدنا بمجموعة من الأنماط السلوكية المعدة والجاهزة من قبل، لكي نتبعها حتى نستطيع تحقيق الحاجات الأساسية كما أنها ترسم لنا الأساليب والتصرفات التي تتيح التعاون والتفاعل والتكيف في المواقف المختلفة، ومهما كانت أهمية التقاليد إلا أننا لا يمكن أن نغفل سيطرتها وطغيانها على حياة الناس فهي تقيد سلوكهم وتتدخل في كل أنواع النشاط المتبادل بينهم وتمارس ضغطا قد يصعب على البعض التخلص منه » (محمد الجواهري وآخرون، 1993، ص 59.60).

وللأمانة العلمية نشير إلى أن تقارب المصطلحات المطروحة في هذا السياق، جعل تحديد المفاهيم ووضع التعاريف ضربا من المجازفة خاصة أن هذه المعارف بينها خيط رفيع جدا، حيث نجد العادات الجمعية COSTUMS والتقاليد TRADITIONS ، الاستعمالات USAGES ، طرائق السلوك MANNERS ، الأساليب الشعبية FOLKWAYS ، القيم VALUS ، العرف HALUTS ، ومن هذا المنطلق نلتزم العذر لمن وقع في الخلط المفهوماتي، وعليه فإننا نتبنى فكرة « أن هذه المصطلحات جميعا تشترك في صفة أساسية واحدة وهي أنها تعبر عن مظاهر السلوك الجمعي المتكرر وأساليب الناس الجماعية في العمل وفي التفكير، كما أنها ظواهر موجودة في الوقت الحاضر وفي الماضي، ولها سماتها الخاصة المشتركة، إذ إن جميعها يكون على أساس الفعل الاجتماعي، كما أنها متوازنة، فضلا عما لها من قوة معيارية تتطلب الامتثال الاجتماعي، وقد أدت هذه الصفات المشتركة بين تلك المصطلحات إلى وجود الخلط وعدم الدقة في الاستعمال » (محمد الجواهري وآخرون، 1993، ص 59).

ثانيا/خصائص العادات والتقاليد:

إن العادات والتقاليد لها خصائص عامة- ترتبط أكثر - بالعادات الشعبية ويمكن أن ندرجها فيما يلي:

- الصفة الاجتماعية : أي إن العادة الشعبية هي فعل يصدر عن تفاعل مجموعة الأفراد ولا تصدر عن شخص واحد بذاته.

- الصفة الوراثية : أن تكون العادة الاجتماعية متوارثة أو مستندة إلى تراث يدعمها.

- الصفة المعيارية : أي إن العادة تتسم بطابع معياري بغرض الامتثال الجماعي، مثل القوانين والأعراف وتوجيه سلوك الأفراد وتمارس الضغط الجمعي على المخالفين من أفراد الجماعة.

- صفة الارتباط بالزمان والمكان : أي إن العادة الشعبية ترتبط دوما بالظروف التي يعيشها المجتمع الذي توجد فيه سواء أكان ذلك من ناحية الزمان، الفصول، السنة، المواسم الزراعية، الأعياد الدينية والوطنية، أم من ناحية المكان، الأراضي المقدسة وأضرحة الأولياء و القديسين، التي تتطلب من الزائرين لها أو العابرين بقربها سلوكات معينة (محمد الجواهري وآخرون، 1993، ص67).

ثالثاً: أهمية العادات والتقاليد :

إنَّ للعادات والتقاليد أهمية بالغة لأنها تترسخ عرفاً وقانوناً جمعياً، يسمح للجماعة البشرية بالتأقلم وتحديد طبيعة العلاقات والمعاملات ، كما تسمح لهم -من خلال الطقوس الممارسة- بالإحساس بعمق الانتماء الذي يمس المعتقد، وهو أقدس رابط يجمع بينهم (الجماعة البشرية أو المجتمع)، ويقول "باخوت Bagehot " عن أهمية العادات والتقاليد: « الإنسان حيوان صانع العادات، فطبيعته كإنسان تحتم عليه أن يقيم صرحاً من العادات والمعتقدات، وهو أن يفعل هذا حتما يرسى دعائم المجتمع، وإن وسيلته إلى هذا الشعور بالحاجة إلى الإشباع والقوة الخفية وراء المحاكاة » (فوزية دياب، 2004، ص 111)

إنه - بناء على ذلك- يكون المعتقد، والقوى الخفية مطلبا بالنسبة لأي إنسان، لكي يخلق لنفسه عالماً يكون فيه إله يسمح لسلطانه بتفسير ما لا يفسر على طريقته، المهم أن يُقنع الجماعة التي ينتمي إليها، ويجعلها تمارس هذه الطقوس طوعية وعن قناعة، ولو يغيب الوعي الإدراكي لهذه الممارسة ونتيجتها، فتصبح قانوناً لا يمكن عصيانه، لذلك كان "أفلاطون" على صواب عندما نادى في كتابه «القوانين» : « ضرورة احترام العرف والتقاليد والعقائد والطقوس الدينية، لأن هذه الأمور وما إليها، تكون مجموعة من القوانين غير المكتوبة، فهي الدستور غير المدون الذي لا يقل شأناً في حياة المجتمع عن الدستور المكتوب، وهي -فوق ذلك- المعين الأول الذي تستقي منه التشريعات والقوانين الوضعية مادتها و أصولها الأولى» (فوزية دياب، 2004، ص06) ، وعليه نستنتج أن العادات والتقاليد والعقائد والطقوس، قانون غير مكتوب يستوجب على أفراد المجتمع الرضوخ له وتتبعه لضمان الانسجام في الجماعة البشرية التي ينتمون إليها.

وللتركيز أكثر في هذا المجال وإعطائه بعداً معرفياً عميقاً، يمكن التطرق في هذا البحث إلى المعتقدات الشعبية كمحاولة لوصف ما يحدث في مجتمعنا من ممارسات ذات بعد عقائدي، أو ترتبط بالمعتقد الشعبي وهو تلك الأفكار التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي، وما وراء الطبيعة، وهذه المعتقدات قد تكون في الأصل نابعة من نفوس أبناء الشعب ذاته عن طريق الكشف والإلهام، أو أنها قد تكون معتقدات دينية مستقاة من مختلف الديانات، وما إلى ذلك، ثم مع مرور الزمن تحولت إلى أشكال جديدة من الاعتقاد المغاير لما يحظى بالقبول الرسمي من رجال الدين والمختصين.

وتتميز المعتقدات الشعبية حسب محمد الجوهري بأنها « خبيثة في صدور الناس، وهي تلقن من الآخرين، لكنها تخمر في صدور أصحابها » (محمد الجواهري وآخرون، 1993، ص 101) وللتوضيح

أكثر ندرج مجموعة من الممارسات المرتبطة بفكر واعتقاد الإنسان، وهي التي توضح سذاجة واعتباطية الممارسة، على الرغم من البعد الفكري والعقائدي الموجود فيها : ومنها الإيمان بالسكر و الشعوذة * .
 إذ" أن البدائي الذي نصادفه، الذي إياه وستظل إياه يعيش داخل كراطوفانيا، أي داخل عالم يتجلى فيه دوما لعب القوى التي نقلت من رقابة الإنسان، أمام هذا الوضع الذي يشكل تهديدا لوجود الإنسان، أي تهديدا لجسده أولا، لا يستطيع الإنسان نفسه أن يجد سوى ملاذ واحد يشكل في آن واحد تقنية حياتية وإجراء إنقاذ وجودي، هذا الملاذ هو ملاذ مشاركة في سلسلة الكائنات، مشاركة تتطوي على تفكيك للجماعة مزيل للنزعة الفردية وعلى تماه مع القوى الخارجية قصد التوصل إلى إغوائها واستمالتها بالتحول الى مثل لها، وبذلك ينمو السكر الذي هو تقنية مرموزة ولغة كوسمو بيولوجية تضمها أساطير تتحدث عن اتصال الممالك الطبيعية وممالك الكائنات المركبة لها. في حكايات تصف أشكال هذا العبور من فردية الى أخرى، ممثلة بالنسابات والتحويلات وظواهر المس بالجن والأرواح ، ومن الممارسات التي تثير الحيرة والدهشة في المنطقة قيد الدراسة - أم البواقي * كجزء من الأوراس- و التي ترتبط بالسكر ارتباطا عجيبا هي ظاهرة "التصفاح أو التصفيح" ، وهي عملية تدخل في السكر تتكون من مرحلتين أساسيتين هما غلق البنت العذراء قبل بلوغها، ثم فتحها سويغات قبيل ليلة زفافها و هو نوع من أنواع السكر .

إن الأمر العرفي في هذه الممارسة هو تأثير الكلمات في العملية، وحسب خبرتي البسيطة واطلاعي على بعض الحالات ومساءلتي لأهل الخبرة والاختصاص، فقد شكلت هذه الممارسة معاناة كبيرة للفتيات اللاتي خضعن لها إما بدافع الخوف عليهن أو بدافع تحصينهن ضد أنفسهن، فإذا وجدت الفتاة المرأة المحصنة التي قامت بهذه الممارسة عندما كانت صغيرة فقد فرجت ووجد الحل، ولكن إذا توفيت هذه المرأة المحصنة (العجوز عادة) أو فقدت الأداة التي أقيمت بها هذه الطقوس فإنه يتعذر -في غالب الأحيان- على الفتاة اجتياز ليلة عرسها بسهولة، والعديد من الفتيات اللاتي لم يصدقن تأثير هذه الممارسة، تفاجأن ليلة زفافهن باستحالة فك غشاء البكارة، فاضطرن للبحث عن وسيلة لذلك ولو عن طريق عملية جراحية.

انتشرت هذه الممارسة في العقود الفارطة بكثرة خاصة في أوساط القرى و المداشر والدواوير، حيث تعيش العائلة الكبيرة كلها مع بعض وتكون أكثر من أربع إلى سبع عائلات في(حوش) واحد. أو في أوساط العائلات التي تكثر فيها الفتيات ويعول عليهن في رعي الغنم في الغابات والقفار والجبال ؛و أيضا أثناء الاستعمار، وعلى الرغم من غموض هذه الممارسة إلا أنها لا زالت شائعة -ولو بنسبة أقل بكثير عما كانت عليه- وممارستها أصبحت ضربا من السكر الذي يعجز أي فكر عن تفسيره، ورغم أنني سألت واستفسرت إلا أنني وجدت نفسي تائهة في مجموعة تساؤلات :كيف بدأت هذه الممارسة ومن بدأها ؟ لحد الآن لم اعرف سوى كيفية ممارستها، ويتعلق الأمر - في اعتقادي- بمجموعة من التعاويذ المرتبطة بسحر دفين، لا يعرف أصله، وجد لكي لا يعرف أصلا.

يبدو للوهلة الأولى أنّ هذا الموضوع محيرا وربما غير ممكن، لكن لمن سمع بهذه الممارسة لا بد له وان يقف عنده ويحاول أن يطرح نفس التساؤلات، علنا نلتقي في نقطة ما، لنجيب عما في ثناياه، ونصل لحل لهذه الأحجية المعجزة، والأعجب من هذا وذلك أن هذه الممارسة هي الوحيدة التي لم تجد لها أصلا

في القدم و لا كلاما في الكتب، ربما لاعتبار الموضوع من التابوهات التي قلما يسمح الكلام فيها، فاعتبر وكأنه مجتمع سري تقام فيه هذه الممارسة للحفاظ على عفة وعذرية المرأة. رابعا/ آلية عمل التصفاح : هناك عدة آليات يعمل بها التصفاح فصنفتها حسب الوسائل المستخدمة فيها :

4 - 1 : النوع الأول: بوسائل حادة شفرة الحلاقة، زجاج حاد (عشيح البيضاء، 2017).

تقوم العجوز بعملية ﴿ تشليط ﴾ فخذ الفتاة أعلى الركبة بقليل أو أكثر وذلك بسبع مرات في اتجاه واحد مع ترديد كلمات المعروف منها {أنا حيط و ولد الناس حيط } في كل مرة فيشكل مجموعة من الخطوط متوازية نسبيا في اتجاه واحد، ثم تقوم العجوز بأخذ سبع (07) حبات من التمر، تمسح بها الدم السائل بعد نزع البذرة وتعطى للفتاة لتأكلها، وتختتم العملية بنثر الرماد على الجرح لكي يبقى معلوما مع مرور الزمن هذا لتسهيل عكس العملية، فان الرماد هو الذي يسمح للوشم بأن يكون بائنا ويتخذ لونا أزرق مائلا إلى الخضرة ، تقوم نفس العجوز -إذا بقيت على قيد الحياة- بنفس الأداة لأن الفتاة يتوجب عليها حفظ الأداة التي أقيم بها هذا الطقس؛ بعكس العملية بحيث تقوم بالتشليط عكس العملية الأولى أي عكس اتجاه التشليط في المرة الأولى، وليس حتمية أن تكون سبعة خطوط بائنة وظاهرة ||||| ، بل تكون عملية التشليط ممكنة فوق نفس الجرح سبع مرات عكس الاتجاه الأول مع ترديد {أنا حيط و ولد الناس حيط }.

4 - 2 : النوع الثاني (اليامنة دحدوح، مصدر شفوي، 2017).

تختلف طريقة إنجاز عملية التصفيح بهذه الوسيلة من منطقة إلى أخرى وأحيانا من عجوز فاعلة إلى أخرى، فالتصفاح عن طريق السداية وهي- في اعتقادي- أغرب طريقة في تحصين الفتاة، ويتعلق الأمر بفك السداية بعضها عن بعض، لتوضع مجموعة مكوناتها في الوسط وتمر الفتاة (المراد تصفاحها) فوق هذه الأشياء سبع مرات، مع ترديد جملة {أنا حيط و ولد الناس حيط } ذهابا وجيئة، ثم تشفر القليل من أجزاء السداية وتحرق حتى تصبح رمادا ليخلط هذا الرماد مع العسل ويقدم وجبة تتمثل في أكلة {العصيدة} لتتناوله الفتاة التي يراد تصفيحها.

وهناك طريقة أخرى في عمل هذا التصفيح حيث تقوم المصفيحة بتمرير البنت على "خيطة النيرة" * سبع مرات ذهابا وإيابا، لكن العملية لا تتعدى إحداث بعض الجروح في ركبة الفتاة تكون سبعا (07) -في الغالب- متتالية في الاتجاه نفسه، بعدها يتم تمرير (تعفير) سبع (07) حبات من التمر أو الزبيب في الدم المراق، ثم تجبر الفتاة على أكل الحبات- الواحدة تلو الأخرى- مرعدة في كل مرة : {أنا حيط و ولد الناس حيط } وهي متوجهة نحو القبلة.

4 - 3 : النوع الثالث (زروال حفصية، مصدر شفوي، 2015) عن طريق القفل (CADNAT) حيث تقف

المرأة المصفيحة خلف الفتاة المراد تصفيحها وتقرأ بعض التعاويذ حاملة في يدها قفل الباب (أي نوع كان) دون أن تراها الفتاة ثم تغلق القفل وتخبؤه أمها إلى أن يأتي يوم زفافها فيعيد فتحه مع ترديد بعض التعاويذ، وقيل لي: إن العتبة (عتبة الدار) أيضا استعملت لهذه العملية حيث تجتازها الفتاة سبع مرات ذهابا وجيئة، وتقول نفس الكلام في حين تردد المرأة العجوز بعض التمانم لتتجز العملية.

إنّ المشكلة المطروحة لحد الآن أنه لا يعرف ماذا تتمتع هذه العجائز ولن يعرف لكنهن يركزن على عقد النية، وفي سياق آخر تعد هذه العادة في تفسير انثر وبولوجي افتراضي طقسا مساريا يجعل الفتاة تتحد مع الروح الشريرة والتي تعجز أي رجل عن ممارسة الجنس معها وتحسسه بتقويض رجولته، إن صح التعبير ومن هذا المنطلق فإن هذه الممارسة تحتاج إلى تفسيرات عديدة علمية ونفسية وحتى دينية تسمح لنا بفسخ هذا العقد مع الشيطان؛ وببيان أن هذه الممارسات ما هي إلا عقود وعهود مع الشيطان تجعل من الفرد عبدا له ، ويمكن أن يكون لهذه الممارسة أثرا عكسيا فتجعل الفتاة تتحرف وراء أهوائها من منطلق أنها محصنة، لكنها في الأخير يمكن أن تدفع الثمن غاليا لأنها يمكن أن تخسر كل شيء في لحظة تصديق لهذا الاتحاد.

خامسا/ رأي علم النفس في الظاهرة: (عبد الرحيم بن عبيد، 2017)

حسب " والتر فون فاربورغ" (Walther Von Warburg (charles boudouin, 1982 p171 فإن " مفهوم الإيحاء يمثل معنى احتقار يا منذ ظهوره سنة 1174، حيث ينسب إلى الأفكار السحرية والشعوذة، وكذا إلى الممارسات الشيطانية، ذلك ما يؤكد - أيضا - (Michel " Jacques benigne Bosseut " (larroque, 1993 p217 سنة 1704، الراهب والكاتب ورجل الكنيسة الفرنسي، على أن الإيحاء هو إحدى الممارسات التي تنسب إلى الشيطان، وبقي هذا المفهوم موسوما بالسلبية والدونية، وكل ما هو "حقارة" إلى غاية مجيء الطبيب والفيلسوف " (Denise " Emile Maximilien paul littré (Jodelet, 1984 p363 سنة 1881، في نهاية القرن التاسع عشر، ليصحح المسار ويعطي المعنى الإيجابي والمفيد لمفهوم الإيحاء، والذي يحمل كذلك معنى الاقتراحية، والذي أشار فيه بأن الإيحاء أو الاقتراحية، هو تأثير فكرة على السلوك، أو التفكير الإنساني أو الإدراك أو الحكم وكذا الذاكرة، والتي يتم إملاؤها على شخص من طرف شخص آخر، أو من طرف الشخص ذاته ﴿إيحاء ذاتي Autosuggestion﴾.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمثل هذا المفهوم كيفية إرسال فكرة توجيهية بلفتة شفوية أو غير شفوية، الغاية منها التأثير على الآخر، حسب ما ورد عن " Hippolite " (Hippolite Bernheim., 2004.p31 سنة 1884 في المرجع الذي أعيد طبعه سنة 2001، كما أنها ليست بالعملية التي نمارسها أثناء التنويم المغناطيسي بل حتى خارج هذا الإطار أي بممارسة طقوس ﴿Rituels﴾ متنوعة لإيهام الأفراد أو التأثير عليهم ومنه إقناعهم.

ولقد جاءت كل هذه الأطروحات بمثابة تمهيد لموضوع تصفيح أو تصفاح ﴿ Cablage﴾ الفتاة في المجتمعات الشرقية (العربية) خاصة في أرياف مصر، السودان، ودول شمال إفريقيا، منها الجزائر، وهي تعرف لدى سكان الغرب الجزائري وجيرانهم المغاربة بمصطلح (التغوار)، حيث إن المعتقد السائد لدى هؤلاء إنّ هذه العملية التي تصاحبها طقوس خاصة بكل منطقة، هي بمثابة تحصين للفتيات بغية حمايتهن من فض بكارتهن، حتى قدوم موعد الزواج، الذي تعاد فيه نفس العملية بطريقة عكسية لإزالة التصفاح، الذي بموجبه تصبح الفتاة قابلة لفض بكارتها بسهولة.

ما نستخلصه من كل هذا هو: إن الفتاة بفضل تعويذات معينة تسردها عجوز مختصة والتي يذاع صيتها في منطقة ما، بخصوص قدراتها من ناحية، ومن ناحية أخرى تكرر سماع خوارق هذه العجوز في منطقة معينة، وتداول ذلك على كل لسان، يكون ذلك العامل الأساسي لتوضيح وترسيخ تصورات اجتماعية تبنى كمعرفة ساذجة للمعنى العام، يكون لها الأثر العميق على نفسية وشخصية الفتاة التي ستدخل أفكارا إيجابية، اقتراحية، تجعلها بمثابة جدار صلب ينهار وينكسر أمامه أي عضو ذكري، أي يكون هناك تأثير نفسي قوي على الجانب الجسماني (عضلات الفخذين وكذا المهبل المتصلب) لمنع ولوج أو اختراق العضو الذكري عند الجماع، حماية للجسد الأنثوي من إتلاف إحدى مكوناته الحميمية التي تعكس وترمز إلى العفة والشرف أو "موضوع العار".

سادسا/ رأي الطب في الظاهرة: (ح شبيلي مصدر شفوي، 2017)

لقد سألت الأطباء المختصين في أمراض النساء، عن تفسير علمي لهذه الممارسة، فكانت معظم إجاباتهم تتلخص في: إن هذه الممارسة غير علمية، ولا تفعل في جسد المرأة شيئا ملموسا، كأن يتحول غشاء البكارة من حالة إلى حالة، و ينفي معظم الأطباء أي تأثير فيزيولوجي على جسم المرأة، ويرجحون فكرة الممارسة الاعتباطية، التي لها تأثير نفسي لا غير.

6 / رأي الدين في الظاهرة: لقد تبينت -من مختلف ما ورد من آراء للأئمة في هذا الموضوع- مجموعة من الآراء لما فيها من دقة واختصار واعتبار؛

6 - 1 : الرأي الأول: (عمر جغلون.مصدر شفوي، 2017)

إنّ التصفيح نوع من أنواع السحر، وهو يندرج في إطار الدجل والشعوذة، دفعت إليه ووسعته نظرة المجتمع إلى المرأة والخوف المتجذر على مستقبلها، والحكم الاجتماعي القاسي عليها، وعلى أسرتها إن هي تعرضت إلى العدوان الجنسي، فما بالك إن هي وقعت في تلك الممارسات الجنسية طوعا واختيارا؟! ، أما حكم الدين في التصفيح فهو التحريم لأنه نوع من السحر ، والسحر محرم بنص الكتاب والسنة والإجماع، لأنه نوع من أنواع الكفر، قال الله تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾/سورة البقرة

فالسحر كفر ، وهو من أعمال الشياطين ومن تلاوتهم ومما علموه للناس ليفتنوهم به كما وضحته الآية ومن ثم فهو محرم، أما عن تفسير الظاهرة من الناحية المنطقية بحيث يستحيل على أي رجل أن يوقع المرأة المصفحة أو يؤثر على بدنها، فالجواب إنّه أمر غيبي لأنه سحر والأمور الغيبية لا تفسر تفسيراً منطقياً، لأنها داخلية في عالم الغيب والتفسير المنطقي يجري في عالم الشهادة، أما تفسير توجه كثير من النساء في المجتمع المغربي إلى تصفيح بناتهن بهذه الطرق السحرية، فمرده إلى الخوف، إذ هو الدافع

إلى ذلك، لأن المجتمع يعاقب المرأة إذا وقعت في الفاحشة، ولو كانت تحت الإرغام والإكراه، ولا يفعل ذلك مع الرجل، والعار لا يلحق المرأة وحدها بل يلحق أمها وأهلها جميعا، فيدفع الخوف أمها إلى حمايتها من سبب العار بأي طريقة، ولو كانت غيبية، و سحرا محرما.

6 / 2 : الرأي الثاني: (سامي بن عبد الحميد، مصدر شفوي ، 2017)

ظاهرة التصفاح هو عادة جاهلية من جملة العادات التي لا تزال منتشرة عند بعض الأسر البعيدة عن معرفة أحكام الشرع والعمل به يعملونها بحجة حماية عرض الفتاة من الهتك حفاظا على بكرتها حتى يحل وقت الزواج ودخول الزوج بها وهو عمل محرم لأنه نوع من السحر وهو سحر الربط وقد تقرر عندنا في الشرع أن ممارسة السحر وعمله كفر مخرج عن ملة الإسلام بنص القرآن الكريم والسنة النبوية. قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا مِنَ الْبُحُورِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ 102/سورة البقرة

إن الإسلام قد أبطل ، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اجْتَنِبُوا الْمُؤَبَّاتِ الشَّرِكِ بِاللَّهِ وَالسَّحْرِ » ص 220 [أبو جعفر الطبري(تاريخ الطبري) (275/4) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف. القاهرة 1967م]

6 - 3 : الرأي الثالث: (فيصل لمراد، استبيان، مصدر شفوي ، 2017)

التصفاح ظاهرة قديمة جدا في المجتمع الجزائري وهي من العادات السيئة جدا والتي للأسف الشديد لا تزال إلى اليوم مع ما فيها من الضرر الديني والضرر المرضي للإنسان، والتي هي من جهة أخرى تتعدى العادة السيئة فهي من الأمور المحرمة لأنها ضرب ونوع من أنواع السحر يفعله أولياء البنات لأغراض معلومة. لان الذي يصفح الفتاة لا يفعل هذا التصفاح إلا إذا فعل أمورا وقرأ طلسم معينة لفعل هذا السحر وهو نوع من أنواع سحر الربط الذي يربط الفتاة عن جميع الرجال وهذا باب شر عظيم؟ مع العلم أن من شروط نوع التصفاح لتلك الفتاة هو نزعها من طرف فاعله الأول وهذه هي النشرة التي نهى عنها شرعنا وهي حل السحر بالسحر. فان وجد هو وإلا كان الذهاب إلى الساحر لحله وهذا كذلك كفر بالله عزوجل فنسأل الله الهداية لهم جميعا وأن يصلح أحوال المسلمين.

6 - 4 : الرأي الرابع (سليم عمران، مصدر شفوي،، 2017)

النشرة : وقوع عقد السحر أو حله أو كلاهما، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة : هي حل السحر بمثله، حل عقد السحر ومعلوم أن هذه العادة الشيطانية السيئة هي من عقد السحرة لعنه الله عليهم، ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ سورة الفلق الآية 4 ، وعلى هذا الأساس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها من عمل الشيطان » والحقيقة أن السحر لا يكون إلا بالشرك والذي يأتي الساحر ويطلب منه ذلك (نشرا ووقوعا) فقد رضي قوله وعمله ورضي أن يعمل له ذلك ورضي أن يشرك ذلك بالله تعالى

لأجل منفعته وهذا غير جائز، وعليه فلا يجوز أن تُحفظ الأنفس والأعراض بالشرك، ولأن يموت المرء على التوحيد خير له من أن يشرك بالله.

6- 5 : الرأي الخامس (عبد الرزاق بزعي، مصدر شفوي، 2017)

(التصفيح) أو (التصفاح) كلمة باللهجة العامية أما بالفصحى فهو ربط البنت الصغيرة (دون سن البلوغ)، ويعتبر نوع من أنواع السحر الذي تمارسه بعض الأمهات الجاهلات للحفاظ على عفاف وطهر بناتهن حتى لا يقعن فريسة الاغتصاب وبالتالي تبقى الفتاة عذراء إلى حين موعد زواجها فيتم فكه. وسحر التصفيح من اخطر أنواع السحر تأثيراً، وقد ثبت ذلك بشهادة الكثير من البنات اللاتي بلغن سن الزواج ولم يستطعن فك هذا السحر إلا بصعوبة وبعد مشاكل عائلية كثيرة، و حكمه الشرعي حكم جميع أنواع السحر وقد جاء تحريمه في الكتاب والسنة وأجمع جمهور علماء الأئمة على تحريمه وان كانت النية في استعماله نية حسنة وطيبة.

خاتمة

إن عملية التصفيح - وما يصاحبها من غرائب ومنتاقصات- تجعل من المرأة في مجتمع قضيبي بامتياز محمية من الآخر، من قبل عالم لا مرئي، حيث تقوض فحولة الرجل، وتتحول بذلك هشاشة المرأة إلى صلابة، تقضي على الرجل وتجعله عاجزاً أمام اختراق الأنوثة على الرغم من إنه الدور المنوط به، ولا شك أن هذا الموضوع يظل فضفاضاً وقابلًا لعدة تأويلات، ولا يعدو طرحنا له، وخوضنا فيه، باب الفضول وحب الاطلاع، أو طرق موضوع من أشد التابوهات، كما أنه جزء من عاداتنا وتقاليدنا لا يمكن إغفالها، على أن الآراء التي يمكن أن نخالفنا أو ترفض طرحنا تبقى إضافة نوعية إلى هذا الطرح.

وأختم بأن " السحر يكاد يماثل الدين في كونه تجربة داخلية تتعالى عن كل تعميم وتقنين، فالله موجود، لكن التحقق من وجوده ل يتم إلا باطنياً وبشكل فردي ومن تتكشف الحجب بينه وبين الماورائيات يعسر هناك لأن تلك الرؤية والكلام لا يمنحان نفسيهما إلا للفرد وللغرد وحده. مثلما يعسر على المؤمن إقناع الملحد (المتماذي في إلحاده) بوجود الله عن طريق استدعاء براهين حسية ملموسة دامغة ويعسر على الملحد إقناع المؤمن (الغارق في الإيمان) بعدم وجود الله كذلك يشق على عديم الإيمان بالسحر أن يقنع الساحر والمسحور -خصوصاً- ببطلان ما يؤكدانه. وحده المؤمن يعرف الله حق المعرفة ووحده من تعرض لمصيبة السحر يعرف حقيقة وجود هذا النشاط " (ج برانت، تودروف وآخرون السحر من منظور انثولوجي، 2005) فما بالك بمن يمارس هذا النشاط عن قصد وبغرض الحفاظ على العفة والجسد بمعتقد يخالف المنطق والعقل والدين وحتى النفس البشرية، ربما تكون هذه الممارسة تطبق عنوة على الفتاة بغرض الحفاظ على الشرف والعفة وربما تكون إرادة الفتاة وقناعتها هي من يكسر هذا السحر وليس شيئاً آخر.

قائمة المصادر و المراجع:

* القرآن الكريم برواية ورش.

* الكتب

1/ محمد الجوهري وآخرون، (1993)، علم الفلكلور، دار المعرفة الجامعية، عين شمس، الإسكندرية، دط.

2/ فوزية ذياب، (2004)، والعادات الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، دت، دط.
3/ ج بران.ت.تودوروف وآخرون،(2005)، السحر من منظور انثولوجي. تر:محمد أسليم، دار إفريقيا الشرق (المغرب)، ص:16.

*_المصادر الشفوية

- الأئمة: لمرد فيصل، سليم عمراني، عبد الرزاق بزعي، عمر جغلول، سامي رويبح .
- الأطباء: ح شبيلي، طبيبة مختصة في أمراض النساء و التوليد.
- النساء التي عايشن الممارسة: عشيش البيضاء، عشيش رمانه، زروال حفصية، دحدوح اليامنة. -
- عبد الرحيم بن عبيد: أستاذ محاضر بجامعة العربي بن مهدي أم البواقي.استبيان.

*_المراجع الأجنبية

- « Qu'est ce que la duggestion » ed : De Lachaux et . 1982. Charles Baudouin
.Nestlé, Paris,
1. Michel Larroque. 1993 « Hypnose, suggestion et autosuggestion » ed :
L'Harmattan, Paris, France,.
 2. Denise Jodelet In ، 1984. « Psychologie Sociale » ed : P , U , F , Paris,
France,
 3. Hippolite Bernheim.2004. « De la Suggestion dans l'état hypnotique et
dans l'état de veille» ed : L'Harmattan,Paris,